مجزرة دير ياسين

بين الاخلاق والتكتيك العسكري

منذ النكبة، وعلى امتداد اكثر من ربع قرن، عانى الشعب العربي الفلسطيني الوانا من الكوارث .. ويوما بعد يوم اشتدت مأساته عمقا واتسعت ابعادا. لكن جميع الضربات المتتالية التي نزلت على جسم هذا الشعب وكرامته لم تستطع ان تطمس اسما لا يمر بشفة ولا يسقط على سمع الا وترتعش الابدان وتنقبض المشاعر .. انه الاسم الفاجع "دير ياسين". دير ياسين، اول قرية عربية نكبت بالاحتلال الدموي في ربيع ١٩٤٨ (٩ نيسان)، واصبحت رمزا لمأساة الشعب العربي الفلسطيني ورمزا لقسوة الصهيونية ومرارة الكراهية. دير ياسين! الم فلسطيني، على العالم الا ينساه. ألم في في طريق الآلام نحو جلجلة العصر .. الم نعيشه مع غيرنيكا الاسبانية، ليدتسى التشيكية، ومع سونغ مى وماى لاى الفيتناميتين!

أكثر من ربع قرن مر على تلك المجزرة الرهيبة، لكنها ما زالت تطفو على السطح لتبعث الالم ولتجدد الحوار، ثم تعود لتستقر في

اعماق تكويننا النفسي.

ما زال مرتكبو الجريمة يحاولون اقناع انفسهم بطهارة ايديهم، واقناع العالم ببراءة فعلتهم .. والشعب الضحية ما زال يجدد الولاء لقضيته ويرفع صوته مطالبا بحقه المشروع في الحياة الآمنة في وطنه..

في الثلاثين من آب ١٩٦٨، وفي الملحق الاسبوعي لصحيفة "هآرتس" كتب اورى ميلشتاين مقالا ضافيا حول "عملية" دير ياسين، عرض فيه اكثر من وجهة نظر بالنسبة للمجزرة. ورغم ان المقال بشكل عام يعتبر دفاعا عن مرتكبي الجريمة فان القارىء يستطيع اكتشاف الحقائق من فقرات وتفصيلات موزعه بين صفحات المقال الاربع..

منذ مطلع مقاله، يعترف الكاتب بان قضية دير ياسين "كانت نقطة تحول في العلاقات بين اليهود والعرب".

ومن ثم يصف ميلشتاين الوضع السياسي والعسكري في البلاد في ذلك الوقت فيقول ان قرار التقسيم الذي يجعل من القدس مدينة دولية قوبل بمعارضة المنظمتين الارهابيتين "ايتسل" (ارغون تسفأى لئومي - المنظمة العسكرية القومية) و"ليحي" (لوحمى حيروت يسرائيل - المحاربون لحرية اسرائيل)..

ولذا فان هاتين المنظمتين قررتا العمل في القدس ومنطقتها بشكل منفرد رغم انهما وافقتا على الاندماج مع منظمة الهجاناة (الدفاع) في انحاء البلاد الاخرى.

كان قائد الهجاناة في القدس يدعى دافيد شلتيئيل "وكان يعتبر نفسه القائد الوحيد الذي يتمتع بالصلاحية" .. ولكن جماعة "ايتسل"

و"ليحي" رفضوا الاعتراف بشلتيئيل قائدا عسكريا، ورأوا فيه ممثلا شخصيا لدافيد بن غوريون، تتلخص مهمته في القضاء عليهم وفي المحافظة على الا تخرج المعركة عن الاطار الذي تم تصميمه في اللقاء بين غولدة مئير والملك عبد الله.

في هذه الظروف نشطت منظمتا "ايتسل" و "ليحى" فقامتا بعدة عمليات تخريبية في شعفاط والشيخ بدر وفي سائر تجمعات السكان العرب، واتخذت هذه العمليات، كما يوحي المقال، طابع الهجوم المسلح على الاماكن العامة وقتل المدنيين بالجملة، ونسف المنازل على اصحابها في ساعات الليل!

ويقول كاتب المقال: "محاربو ليحي، بقيادة درور ويوعد (فتحيا زليبنسكي) طهروا الشيخ بدر (المكان الذي تقوم عليه الكنيست اليوم)، ورروميما ولفتا. وقد فعلوا ذلك بواسطة النسف الليلي للمنازل العربية والهجومات المفاجئة على مراكز "المشاغبين" (الضحايا في لغتهم تعني المشاغبين!).

وقد وصف تقرير وضعه رجال الهجاناه عمليات العصابتين المذكورتين بقوله: "لقد ارتكبوا (جماعة "ليحي") عمليات سطو وابتزاز اموال من الاثرياء".

وفي ٢٩ شباط ١٩٤٨ "سرقوا اموالا من خزينة البلدية وفي اليوم نفسه سرقوا سيارة محملة بالخنازير وابتزوا الف ليرة من التجار، اصحابها" .. "وسرقة السيارات كانت عملية يومية" .. ورجال "ايتسل" ايضا -يضيف التقرير- اخذوا نصيبهم من هذه العمليات.

لكن هذا "العداء" بين الهجاناة من جهة وبين "ايتسل" و"ليحي"

من جهة اخرى لم يكن عميقا، وقد دار حول الاسلوب دون المبدأ، لذا فقد اتصل شلتيئيل اكثر من مرة بقائد "ايتسل" مردخاي كاوفمن (صاحب الاسم المستعار: رعنان) واتصل ايضا بقائد جماعة "ليحي" يهوشع زطلر، في محاولات متكررة لاستيعاب المنظمتين كل على حدة او لضربهما الواحدة بالاخرى، ليخلو المجال لمنظمة الهجاناة .. وفشلت جهود شلتيئيل ولكن هذا لم يمنعه من التقرب الى قادة المنظمتين حتى في ذروة عملية دير ياسين رغم ان الهجاناة حاولت فيما بعد الظهور بمظهر البرىء والمستنكر للجريمة.

المجزرة

احدى محطات الوقود في نتانيا يملكها اليوم رجل يدعى فتحيا زليبنسكي. في عام ١٩٤٨ كان يدعى "يوعد" وقد اضطر للتخفي وراء هذا الاسم لانه كان من قادة منظمة "ايتسل" في ذلك الوقت. و"يوعد" او "زليبنسكي" هذا كان قائد قوة "ايتسل" في عملية دير ياسين. اما قائد القوة الثانية التي اشتركت في العملية، وهي من جماعة "ليحي" فقد كان يدعى في حينه "غيورا" اما اليوم فلم يعد بحاجة الى اخفاء اسمه الحقيقي "بن صيون كوهين"..

ولماذا وقع اختيار الارهابيين على قرية دير ياسين التي يقطنها ٥٠٠ عربي، دون سواها؟

تقع القرية المنكوبة على تلة ترتفع ٨٠٠ متر عن سطح البحر (غربي القدس)، وتشرف على عدة طرق ومستوطنات، الامر الذي يمنحها اهمية استراتيجية كبيرة، وقد لفت موقعها هذا انظار

الارهابيين بشكل خاص .. ولكن الهدفين الاساسيين من العملية كانا:

١- "تطهير" المنطقة، التي يسكنها كثيرون من اليهود، من السكان العرب.

٢- "رفع معنويات" المستوطنين اليهود في القدس وضواحيها.

وكان هناك سببان عسكريان آخران، اولهما ان دير ياسين كانت نقطة هامة لحماية القسطل ومحطة في طريق الامدادات العربية، واتضح هذا الامر فيما بعد فبعد سقوط دير ياسين بايام سقطت "القسطل" ..

والسبب الآخر انه كان يجري اعداد مطار على مقربة من القرية لذا فقد سارع الارهابيون الى ضربها.

وبدأ الاعداد لعملية الغزو الدامية ..

وضعت الخطة التي تقضي بان تتحرك قوتان تابعتان لايتسل وليحي، باتجاه دير ياسين من الجنوب ومن الشمال لاحتلالها بعملية تشبه عملية "إطباق الملقط" ..

وحسب الاتفاق بين المنظمتين فقد تقرر ان يتم التزويد بالسلاح من قبل جماعة "ايتسل" التي تمتلك مصنعا للرشاشات الصغيرة من طراز "ستينغن"، اما جماعة ليحي فقد التزمت باعداد المتفجرات الضرورية للعملية.

موقف الهجاناه

قلنا ان الهجاناه حاولت بشدة ان تتنصل من جريمة دير ياسين. لكن الوثائق التي افتضح امرها فيما بعد اكدت المشاركة النظرية

والعملية لهذه المنظمة في المجزرة التي هزت الرأى العام الانساني .. فقد جاء في رسالة بعث بها شلتيئيل الى احد قادة العملية:

"علمنا أنكم تنوون القيام بعملية ضد دير ياسين. وبودي ان الفت انتباهكم الى حقيقة كون احتلال دير ياسين والسيطرة عليها جزء من مخططنا العام".

أنكرت قيادة الهجاناة وجود هذه الرسالة، لكن كاتب المقال يؤكد انه رأى نسخة عنها في ملفات الهجاناه نفسها!!

تقرر ان تبدأ عملية الغزو في ساعات الفجر .. وفي ساعات المساء السابق كان ٧٢ من رجال ايتسل و٦٠ من رجال ليحى قد استكملوا جميع استعداداتهم، وتقرر ان تكون الساعة الرابعة والنصف صباحا هي ساعة الصفر..

تقدمت القوتان نحو دير ياسين، وعندما اصبحتا على بعد حوالي ٤٠ مترا من منازلها الاولى أحسّن الحراس العرب بحركة غريبة، وانطلق الرصاص، وبدأت المعركة ..

وهنا يؤكد الكاتب، وذلك في سبيل أن يصور المذبحة قتالا عنيفا وجها لوجه، ان المهاجمين واجهوا "مقاومة عنيدة واضطررنا الى محاربة العرب وجها لوجه".

لكنه يعترف بالحقيقة او بعضها حين يكتب ان المهاجمين اسروا عددا من النساء العربيات وأجبروهن على نقل الجرحى مما ادى الى اصابة عدد من هؤلاء النساء ..

ويكتمل الاعتراف بعض الشيء حين يكتب: "اضطررنا الى السيطرة على كل منزل على حدة بواسطة القاء القنابل الى داخله واطلاق نيران الرشاشات. وهكذا قتلت اثناء المعركة عائلات عديدة بينها النساء والاولاد".

امتدت المعركة الى ساعات الظهر .. ووصلت الى الغزاة امدادات من .. الهجاناة! وأخذوا ينسفون البيوت على اصحابها بعبوات من المتفجرات يبلغ وزن الواحدة منها ٢٠ كغم .. ويقول رعنان في وصف العملية: "على الاغلب، كان المنزل ينهدم على ساكنيه. وبين الانقاض شاهدنا الجثث الممزقة.

بعد ان نسفوا ١٥ بيتا، ضعفت المقاومة، وقرروا تقليص عمليات النسف "للتوفير في المتفجرات الغالية" .. ومن ثم .. " للكف عن اصابة النساء والاولاد" (!)

وسقطت منازل القرية في ايدى المحتلين .. وصمد هذا المنزل ، ولم يتمكنوا من اخماد مقاومة المعتصمين فيه الا بقذائف الهاون التي حملتها اليهم جماعة "بلماخ".

في الساعة الثانية عشرة ظهرا تم احتلال القرية كلها .. وهرع الى المكان قائد الهجاناه شلتيئيل وطلب مقابلة رعنان ..

وتم الاتفاق فيما بعد على ان تخرج قوتا ايتسل وليحى من القرية الانقاض لتحتل مكانها قوة من الهجاناة .. وحين وصلت هذه القوة تكلم قائدها في رجاله:

"لقد أتينا لنأخذ هذا المكان من ايدى المنشقين (جماعة ايتسل وليحى)، في عملية احتلال القرية اظهروا وجههم الحقيقى وبرهنوا على انهم قتلة بكل معنى الكلمة. لقد الحقوا العار بالشعب اليهودي في البلاد وفي العالم".

واصدرت الهجاناة منشورا فيما بعد عبرت فيه عن "مشاعر القرف والاشمئزاز من الطابع البربرى الذى نفذت به هذه العملية" ..

هذا ما أعلنه قادة الهجاناه على الملأ، لكن موقفهم الحقيقي يظهر بوضوح في المعلومات التى يعلنها كاتب المقال، الذى يحاول الدفاع

عن جماعة ايتسل وليحى وفي الوقت نفسه يؤكد اشتراك الهجاناة في العملية ..

شاءت الهجاناة أن تستغل هذه العملية للدعاية لنفسها ومن الامور التى فضحتها، قضية معاملة اسرى دير ياسين.. فقد قرر الغزاة ان يسوقوا الاسرى في شوارع الاحياء اليهودية من القدس جريا على عادة الرومان في "مواكب النصر" .. مستهدفين اذلال الاسرى من جهة واثارة المشاعر القومية العدوانية لدى جماهير المحرضين ..

أكثر من ٢٥٠ من رجال ونساء واطفال القرية ذبحوا في منازلهم .. ورفض القتلة دفنهم ..

"كان ذلك النهار حارا بشكل خاص .. ريح غربية حملت نحو القدس رائحة الجثث المحروقة والموت. وانتشرت فى المدينة اشاعات عن مجزرة حلت بسكان دير ياسين".

«لا اشعر بأي اسف»

دير ياسين .. ابدا تتمرد على النسيان .. ابدا تنغل ذكراها نمالا على الجرح المفتوح، توجع وتكرز. ومن حين لحين نعود فنسمع شهادات اخرى من شهود آخرين .. وتبقى الحقيقة الاساسية: تعددت الشهادات والعار واحد !

في ٤ نيسان ١٩٧٢ نشرت "يديعوت احرونوت" مقابلة مع مردخاي رعنان (قائد وحدة الايتسل فى المجزرة)، ولخصت مجلة الغد تلك المقابلة التي كرر فيها رعنان اعترافاته:

" ... كل ربع ساعة تقريبا نسفنا بيتا. ولم يكن عندنا فكرة عن الموجود فى البيوت. لقد نظرنا الى كل بيت وكأنه متراس معزز.

عندما وصلنا احد البيوت حذرنا الموجودين فيه باننا سننسفه ... وهم اذ شاهدوا ما جرى لسكان البيوت السابقة خرجوا نحونا رافعين ايديهم ... كانوا تسعة بينهم امراة وولد. الشاب الذى كان حاملا "البرين" معنا كبس على الزناد حتى النهاية. وزخة الرصاص اصابت العرب.

... اذ رأى سكان البيوت الباقية ما جرى .. رفضوا التسليم. فلم يبق امامنا مناص. نسفنا البيوت على سكانها.

... جمعنا (بعد انتهاء العملية) اهل القرية الذين لم يصابوا وقلنا لهم: بامكانكم الاختيار ... اما الذهاب الى عين كارم، (قرية عربية من ضواحى القدس)، او ناخذكم الى بوابة مندلباوم (التي منها يصلون الى القدس القديمة التى كانت تحت سيطرة الجيش الاردني - الكاتب).

لكن قائد الليحى-زطلر- قال في نفس المقابلة (يديعوت ٤-٤-٧٢): الذين بقوا احياء فى نهاية العملية ... حملناهم على سيارات شحن وبعثناهم الى بوابة مندلباوم".

وأما شاهد العيان-مئير بعيل الجنرال فى الاحتياطى اليوم - فقال: "لقد اخرجوا خمسة وعشرين رجلا من البيوت وحملوهم على سيارة شحن وطافوا بهم "طوفة انتصار" فى احياء محنى يهودا وزخرون يوسف. وفى نهاية الجولة احضروهم الى محجر بين دير ياسين وجبعات شاؤول وقتلوهم بدم بارد. اما من بقى حيا من النساء فقد حملوهن على سيارة شحن واخذوهن الى بوابة مندلباوم".

هكذا تمت العملية-المجزرة. واما مرتكبوها، فلا يشعرون حتى اليوم باى اسف لما جرى، بل يفاخرون!! ففى المقابلة الانفة الذكر (يديعوت احرونوت ٤-٤-٧٢) قال احدهم: "اليوم بعد اربع وعشرين سنة على العملية، لا اشعر باى اسف على ما جرى"!

ويكمل .. " لقد أحدثت عملية دير ياسين انعطافا فى معارك ١٩٤٨. لقد انزلت بالعرب خوفا مميتا، وحطمت معنوياتهم. وسهلت احتلال طبريا وحيفا وعشرات القرى العربية التي هرب اكثرية سكانها".

أما حصاد الدم فى مجزرة دير ياسين فكان ٢٥٤ ضحية (باعتراف المصادر الاسرائيلية).

لا يشعر بأي أسف .. وانه لشاهد آخر من اهله.

اما دير ياسين، فستبقى حية نازفة، كما هى ابدا..

ابدا تتمرد على النسيان. ابدا تنغل ذكراها، نمالا عن الجرح المفغور .. توجع وتكرز!